خطاب السيساوي الناعم جداً

عبد الحكيم حيدر

بكلمات مستنترة تارة، ومرّة ملتبسة، وأحياناً تدخل الكلمات إلى حيّز الخجل، حيث لا حاجة لهذا الخجل أصلاً، خجل بسيماء الفجور الخفي الذي لا يعلن عن نفسه أبداً، ولو حتى بالضحك، ومرّة بالضحك أو تجاهل الأحداث المهمة التي تمرّ بالوطن، وذلك بتحويل الموضوع برمّته إلى هدف شيكابالا في الأهلي أو جمال ياسمين صبري، أو لماذا لا تكبر، يا أخي، ليلى علوي رغم مرور هذه السنوات؟

لؤم من استحوذ على السلطة بالحيل، ويختار خطابه بدقة متناهية، لا متباهياً بسلطةٍ مخطوفة، ولا يعطيك أدنى أملٍ بتحسن الوضع، ما دام الناس كسالى، ويريدون كل شيء، ابتداءً من الوظيفة حتى رغيف الخبز على طبق من ذهب من دون عناء، أو مشقة. خطاب يتخلّص من أي مسؤوليةٍ سياسيةٍ للحاكم من أي نوع من سنوات تقترب من الثمانية. وأحياناً، بالضحك الهادئ والمكيدة، يحيل جذر أسباب الفشل إلى «سنة الإخوان». ووقتها نضحك، فيضحك، فيضحك، ويتساءل: هل تعلم كم تتكفّل الدولة أمنياً لهذا الاستقرار؟ وكم تتكفّل الدولة لإدارة المحاكم وحراساتها؟ أرقام مهولة بالطبع. تضحك، فيكمل لك نقص عوائد السياحة وكورونا وعودة ملايين العاملين في الخليج، تسأله ضاحكاً: وهل للإخوان دخل في ذلك؟ يضحك ويقول لك: بالطبع لا، وإلا ما زادت تحويلات العاملين بالخارج من 18 إلى 26 مليار دولار، تقول له: إذاً، الدولة تعمل بكامل قوتها، بصرف النظر عن إخوان أو غيره، والدليل أن الحكومة، عوّمت الجنيه وتحمّل الناس، ومؤلت حفر التفريعة وتحمّل الناس، وما زالت مرتباتهم على أساس سنة 2014، وتحمّل الناس ولم يقوموا بثورة ولم يقطعوا الطريق، كما حدث خلال «سنة الإخوان». واكتُشِفَت حقول ذهب وبترول وغاز، ولم يظهر ذلك على المواطن، بل زاد سعره على المواطن البسيط خمسة أضعاف، وما زال عبد الفتاح السيسي يقول للناس: «إحنا فقرا أوووي» فلماذا تأخرت التنمية الموعودة على الرغم من مرور هذه السنوات، ومن تحمّل المواطن كل شيء، حتى أن 77% من مجمل الميزانية من جيب المواطن «الفقير أوي»؟ يضحك السيساوي الناعم جداً، ويطلب الطاولة.

السيساوي الناعم جدا يضحك في هدوء، بشكلٍ ما، لسخرات مرتضي منصور، طولاً وعرضاً، لأنه يعرف تماماً في أي قناةٍ تصبّ، وتطيل عمر النظام، حتى وإن أربكته ببعض الألفاظ الخشنة في صدور أعدائه، وراضٍ جداً عن تحليلات إسلام بحيري، وحتى وإن خرجت عن مألوف الدين، ويبستم لكل الدماء التي تقطر، ويحللها إبراهيم عيسى من بين أوراق الفقه الإسلامي فقط، بعدما ملأت عروق رقبة المصحف، من دون أن ينظر، ولا إلى أي قطرة دم واحدة، أتت من الغرب في حروب سجلها التاريخ. السيساوي الناعم جداً لا يمتدح النظام وإبقاره علناً، وهي تأكل بالملايين من جيوب رجال أعمال النظام كبقرة أحمد موسى، أو أرانب أماني الخيّاط، أو حتى أفيال عبير موسى في تونس «وهي تشرب من آبار الإمارات وترتع تحت أبراج أبوظبي»، أو حتى ضاحي خلفان وهو يتوجه بقلبه إلى «إسرائيل»، راكعاً بالأمر المباشر. ولا يتكلم السيساوي الناعم جداً عن التطبيع من سنوات أبداً، ولكنه يفسّرها «بضعف عام للمرحلة».

السيساوي الناعم جداً لا يرى في حليفه حفتر «بعد التعديل» جنرالاً أميركياً أنهزم، ثم قضى على جرحه بجواز سفر أميركي، ولا أولاده يتاجرون في الخردة أبداً، بل يكاد أن يشير إليك أنه «غيفارا يتاعنا في الغرب الليبي رغم أننا لا نضمر إلا السلام لشعب ليبيا». السيساوي الناعم جداً فيه من بركة اليسار بقية باقية للتحليل والاستراتيجية، وفيه من جمال عبد الناصر صواريخ حلوان وطائرات حلوان، مع أن كل القطاعات تباع، ولكن هذا فقط لأن «الناس أصبحوا لصوصاً وفقدوا فكرة الانتماء الصحيح إلى الوطن». السيساوي الناعم جداً ما زال متمسّكاً بالدولة المدنية التي يؤسّس لها الجنرال من سنوات، وقد وضع خرسانة أساسها في «طرق كده»، وكباري ربطت العاصمة بالأطراف بسيناء بمطروح بالصعيد بالدلتا تسأله: وهل المدنية «طرق وكباري»، أو قوانين تساوي ما بين مواطنيها في الحكم والثروة؟، يضحك على كلامك، ويقول إنه «بيفكرني بالتلفزيون»، تسأله عن حادث مزلقان اليوم يقول لك: «أهمال بشري والمسيرة انطلقت والأخطاء لن تنتهي ما دام الإنسان»، ويطلب زهرين جديدين «للعشرة» الجديدة.

«المركز العربي...» في عشر سنوات

بلقاسم القطعة

شهدت جغرافية الغرب المتراصة من المحيط إلى الخليج، طوال السنوات العشر الماضية، مزيجًا من لحظات الألم والسعادة، والخيبة والانتصار؛ لكنّها كانت ربيعًا طويلًا مزهرًا على العلوم الاجتماعية والإنسانية في عالمنا العربي؛ إذ تمرّ عشر سنوات على تأسيس مركز العرب جميعًا، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الذي نفض الغبار عنها، وجعل البحث في قضايا المنطقة والكتابة حولها، والاجتماع العلمي بشأنها من الأمور التي «تُؤخذ على محمل الجدّ». عشر سنوات تمرّ على رؤية مؤسس مفكر، حوّل الفكرة إلى مؤسسة، والمؤسسة إلى وسيلة، البحث الموضوعي في قضايانا غايتها الأسمى؛ واضعًا نصب أعيننا العربيّ، وكرامته وحريته في مركز مشروع نهضوي يعدّ علامةً فارقةً في تاريخنا المعاصر.

يقف المركز شامخًا في جغرافيتنا التعيسة، ويصدح بقول نعم. نعم يُمكن للعرب أن ينتجوا معرفةً عن قضاياهم بلغتهم؛ ويمكن لهم المساهمة في حركة التاليف، وفرض شخصيتهم الأكاديمية والبحثية، واضعين بكلّ استقلاليّة أجندتهم البحثية الخاصّة. نعم، يمكن للعرب تأسيس جماعة علمية متماسكة في الداخل، منحازةً للإنسان العربيّ وللحرية والتعدّدية والكرامة؛ ولا تتردّد في رفض الاستبداد والطغيان السياسي والاستعمار؛ تُقدّم نحو الخارج سردياتها ورؤيتها ومواقفها المبدئية، ونتائج أبحاثها، في إطار ندوةٍ علميةٍ وأكاديمية، وبثقةٍ بالنفس، واعتداد بالكفاءة العربيّة. نعم أخرى يقولها المركز، يمكن للجماعة العلمية العربية أن تجتمع في مؤتمرات وندوات وتناقش بكلّ تحضّر وحريّة قضايا المنطقة، وفقًا لأجندةٍ بحثيّةٍ يضعها المركز بكلّ حريةٍ. ونعم، يمكن للعرب، كغيرهم من الشعوب، تشييد دور نشر محكمةٍ قادرةٍ على إنتاج معرفةٍ علميةٍ رصينةٍ قابلةٍ للتداول بين جمهور القرّاء متخصصين وغير متخصصين، من داخل بلاد العرب وخارجها.

يقدّم المركز العربيّ نفسهُ مؤسسةً بحثيةً تتميّز عن مراكز التفكير «الثينك تانكس» التي تتكاثر حول دوائر صنع القرار في العواصم الغربية، وتهتم بإنتاج معارف موجّهة سياساتيًا، وتعمل على إعطاء مشوراتٍ لصنّاع القرار. المركز إذًا، مؤسّسة بحثية تهتم بإنتاج معرفةٍ تنشر أمام الجمهور العام، يصل إليها الجميع بالتساوي، سواء تعلّق الأمر بجمهور القرّاء المهتمين بقضايا المنطقة، ومواضيع العلوم الاجتماعية والإنسانيات، أو باحثين متخصصين، أو صنّاع قرار راغبين في توسيع دائرة اطلاعهم، والحصول على منتج بحثي محكّم عن المنطقة العربية وأبحاثها، في إطار ندوةٍ علميةٍ وأكاديميةٍ، وبثقةٍ بالنفس، واعتداد بالكفاءة العربيّة. نعم أخرى يقولها المركز، يمكن للجماعة العلمية العربية أن تجتمع في مؤتمرات وندوات وتناقش بكلّ تحضّر وحريّة قضايا المنطقة، وفقًا لأجندةٍ بحثيّةٍ يضعها المركز بكلّ حريةٍ. ونعم، يمكن للعرب، كغيرهم من الشعوب، تشييد دور نشر محكّمةٍ قادرةٍ على إنتاج معرفةٍ علميةٍ رصينةٍ قابلةٍ للتداول بين جمهور القرّاء متخصصين وغير متخصصين، من داخل بلاد العرب وخارجها.

يقدّم المركز العربيّ نفسهُ مؤسسةً بحثيةً تتميّز عن مراكز التفكير «الثينك تانكس» التي تتكاثر حول دوائر صنع القرار في العواصم الغربية، وتهتم بإنتاج معارف موجّهة سياساتيًا، وتعمل على إعطاء مشوراتٍ لصنّاع القرار. المركز إذًا، مؤسّسة بحثية

> يُشكر المركز العربيّ ومؤسسه وطاقمه على ما قدّموه ويقدّمونه للعلوم الاجتماعية والإنسانية وللغة العربية وللعرب

نفسها؛ يخدم فكرة المركز بصدق الإنسان السويّ، وإصرار صاحب القضيّة، وكحال السواد الأعظم من مؤسسات البحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية غير الربحية، والتي لا تستهوي الداعمين الخواص مقارنةً بمراكز الأبحاث في العلوم الدقيقة، يحظى المركز العربيّ بدعم سخيٍّ من دولة قطر المضيفة، يتسّق مع رؤيتها الوطنية المبنيّة على تشجيع الحركة العلمية، ويكفل تجاربها الرائدة في مجالات البحث والإبداع والإعلام وغير ذلك.

طوال العشر سنوات الماضية من عمره، ازدهر المركز العربيّ، وتوسّع نشاطه العلمي والبحثيّ؛ وليس المقصود هنا مئات الكتب الصادرة عنه، باعتباره من أهّم دور النشر المحكمة في المنطقة (إن لم تكن الوحيدة)، ودورياته العلمية المحكّمة، ومئات المؤتمرات والندوات والسيمينارات؛ بل المشاريع الكبرى التي أطلقها المركز منذ نشأته، كالمؤشر العربيّ الذي يعدّ أكبر استطلاع رأي في المنطقة، ومعجم الدوحة التاريخي للغة العربية الضخم الذي يؤرّخ لألفاظ اللغة العربية، ومعهد الدوحة للدراسات العليا، المعهد الجامعي المختص في الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية والإنسانية، والذي يقدّم منحًا شاملة للطلبة العرب، مستعينًا بالمع الكفاءات العربيّة التي لا تبخل بنقل معارفها وخبراتها التي اكتسبتها من سنوات خدمتها في الجامعات العربية والغربية العريقة، وقد عاصر المركز العربيّ ثورات الربيع العربيّ؛ وغطّاها تحليلاً وبحثا وتاليفًا ومناقشةً وتوثيقًا، مشيّدًا بذلك مكتبةً عربيةً استثنائيةً في هذا الموضوع، يستند إليها الجيل الحالي من القرّاء والباحثين، وستكون لا محال مادةً علمية موثوقة للأجيال القادمة. ولا يزال المركز مواكبًا لقضايا الديمقراطية والمواطنة والعدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية ومنحازًا لها، ومحافظًا على خطّه الموضوعي والمستقلّ.

تحمل جعبة المركز مزيدا من المشاريع والإنجازات الموجّهة للصالح العربيّ العام. وقد لاحظت الجماعة العلمية العربية المختصّة في العلوم الاجتماعية والإنسانية الفرق بين حركية البيئة العلمية والنشاط البحثي قبل إنشاء المركز وبعده. ولا شكّ عندي أنّ المركز سيكون نموذجًا يُحتذى به في إنشاء مراكز بحثية في المنطقة، لناحية التنظيم والجودة البحثية والالتزام بقضايا المنطقة والتقاليد العلمية والأكاديمية التي أرساها. يُشكر المركز العربيّ ومؤسّسهُ وطاقمه على ما قدّموه ويقدّمونه للعلوم الاجتماعية والإنسانية وللغة العربية وللعرب؛ سيكون المركز ومؤسّسه حتمًا مما يمكن في الأرض.

(كاتب جزائري)

«العدالة والتنمية» المغربي ومأزق السلطة

عمر المرابط

كانت المفاجأة داخل المغرب وخارجه، والصدمة داخل أوساط حزب العدالة والتنمية، ذي المرجعية الإسلامية، والمعروف بمواقفه الثابتة تجاه القضية الفلسطينية، بل وأيضا لدى أحزاب وحركات عروبية وإسلامية كثيرة، في الداخل والخارج.

لم يخطر على بال أحد أن يكون المُوقّع على الإعلان المشترك بين المغرب والولايات المتحدة ودولة «إسرائيل» هو الأمين العام لحزب العدالة والتنمية، سعد الدين العثماني، ولو بصفته رئيسا للحكومة المغربية، وهو المناهض في مواقفه للتطبيع مع الكيان الصهيوني، فتصريحاته النارية ما زالت ترنّ في الآذان، وبلاغاته (بياناته) المُنددة راسخة في الأذهان، ومواقفه لا تخفى وكانت واضحة للعيان، لكنه ها هو يمضي ويُوقّع، وهو أمر لم يُتوقّع، فقبل إنها مواقع السلطة التي تجعل المستحيل ممكنا، وتغير المواقف رأسا على عقب، وتجعل المقياس تحقيق المصلحة، وتبا للمبادئ فهي للنضال، ولا يمكن أن تصمد أمام إكراهات الواقع، ولا ضرورة المواقع.

وجد الحزب نفسه في وضع لا يُحسد عليه، وبين أمرين أحلاهما مرّ، فهو أمام معضلة التخوين والتخوين المضاد، ومضطرٌ لأن يختار بين تخوين الداخل وتخوين الخارج، بين تخوين انعكاسه لقطبي، بضرب صورته النضالية ويشوهها، وينزع عن صدره نياشين الدفاع عن أم القضايا العربية والإسلامية، قضية فلسطين المحتلة، وبين تخوين انعكاسه فعلي، يحطم صورته الوطنية، ويخرّب ما بناه لإثباتها، ويعطي الذريعة لمن ما زالوا يهتفون على الرغم من كل ما وقع، أن الحزب يقدّم مصلحة انتماءاته الأيديولوجية الدولية المزعومة على مصلحة وطنه، ويجعله ليس خارج الحكومة فقط مرفوضا، بل معزولا وحده داخل المشهد السياسي المغربي، منبوذا، وسُحبي مؤامرة 8 أكتوبر/تشرين الأول 2016 التي حيكت ضده، بعد فوزه في الانتخابات التشريعية، تلك التي كان غرضها تحالف كل الأحزاب ضده، ورفضهم الدخول معه في أي تحالف حكومي، مهما كان.

إذن، كان لا بد من الانحياز إلى الإجماع الوطني المغربي في التحام حول قضية الصحراء المغربية، لا بمنطق الضرورة والإكراه، بل بمنطق الاختيار المتبصر للمآلات والمدرك للعواقب. ومن هنا نتساءل: هل تصح دائما مقولة الكاتب الفرنسي، أندريه جيد، «لمّا تختار تتخلى»؟ هو منطق منتقدين ومخالفين ومعارضين عديدين، ولنقل: حقّ للمنتقدين أن ينتقدوا، وللمُدينين أن يشجبوا ويُدينوا، وجازٌ للمُنكرين أن يستنكروا، وساغٌ لهم أن يُزمجروا غضبا ويعبّروا. ولكن ألم يكن من الأجدى أن يتمهلوا ولا يتسرّعوا، ولا يصدحوا بالسباب والشتام ويجهروا، ولا ينسوا كل شيء ويتنكروا، فاصحوا يهجون ولم يعذروا، وأصبحوا يشكّكون في النيات ويتهمون. .. ما قولهم في تصريح الرئيس التركي، أردوغان، أخيرا، أن علاقات بلاده مع إسرائيل لم تتوقف، مع وقوفه مع الحق الفلسطيني، أهو مُكره كذلك؟

ليس موقف المغرب الرسمي وتصريح مسؤوليه يقول إنه ضد صفقة القرن، وإن علاقته مع دولة الاحتلال الإسرائيلي لن تكون على حساب الحق الفلسطيني، وليس هناك أي تغيير البتة في موقفه لا من المبادرة العربية، ولا من حق العودة للاجئين الفلسطينيين، ولا من وضع القدس والمحافظة على طابعها الإسلامي؟ ألم يقل إنه سيدعو إلى عقد لجنة القدس، وإعادة هيكلة بيت مال القدس بما يعزّز صمود المقدسيين؟ ثم أليس موقف حركة المقاومة الإسلامية (حماس)، من خلال وثيقة المبادئ والسياسات العامة، هو إقامة دولة فلسطينية مستقلة وعاصمتها القدس، على خطوط الرابع من يونيو/ حزيران 1967؟ ألم تعتبرها صيغة توافقية وطنية مشتركة؟ ومن ثمّة، ألم توافق على معادلة الأرض مقابل السلام، واعتبارها مرجعية واقعية من أجل حل عادل وشامل ودائم؟ حتى نفهم أكثر، بحكم الدستور المغربي لسنة 2011، وهو أعلى قانون بحكم البلاد، والذي أتاح وصول حزب العدالة والتنمية إلى السلطة، يبقى الحكومة تحت إمرة رئيس الدولة، وهو الملك الذي يسود ويحكم، ويقرّر نهائيا، خصوصا في كل ما يتعلق بالشؤون الخارجية. ومن هنا يبقى اختيار صفة الموقّع، خصوصا في الاتفاقيات الدولية من اختصاصه التي لا ينازعه فيها أحد.

ولكن أكان يمكن للعثماني أن يعتذر عن التوقيع، من دون الوصول إلى العواقب السلبية التي المشار إليها في بداية المقال؟ هذا ما كان مقررا أن يتضح في اجتماع المجلس الوطني لحزب العدالة والتنمية، وكان مقررا في يوم الأحد الماضي (2020/12/27)، قبل أن يتم تأجيله إلى موعد لم يتحدد، والمجلس هو برلمان الحزب وسلطته العليا، والقادر على مساءلة أمينه العام. وبالتالي، لا يمكننا الحديث عن خبايا توقيع قيادة الحزب على الاتفاق مع الولايات المتحدة ودولة الاحتلال الإسرائيلي، أهو اتباع لمنطق المجاراة إلى نهاية؟ أم هو منطق اختياري وعن قناعة؟ أم نحن في منطق طلاق المُكره، يجوز أو لا يجوز، حسب الرواية؟

السياسة لعبة، وعلى الذي يشارك فيها أن يقبل بقواعدها، فهي بين مدّ وجزر، وهنا هنا مصالح ومفاسد، وثمّة أخذ وعطاء، وهناك وفاء مقابل وفاء. ويعتبر الحزب (الإسلامي) نفسه مدينا لملك المغرب بوجوده في الساحة السياسية، فقد امتنع الملك عن حلّ الحزب سنة 2003 بعد اتهامه من أحزاب يسارية بتحمّل المسؤولية المعنوية عن الأحداث الإرهابية التي ضربت المغرب آنذاك. وقد ثمّن «العدالة والتنمية» رفض الملك ضغوط دول عربية لإقصائه، والحزب يعرف أن تصدّره المشهد السياسي المغربي لم يكن ليكون، لولا رغبة الملك برؤية نتائج انتخابية نزيهة، والحزب وافى أنه محل استهداف داخلي وخارجي، فالمتكالبون ينتظرون بفارغ الصبر أن يرتكب أي خطأ ولو أقل من إشارة، وهذا لا يعني قبول الحزب بكل شيء.

قبل الخنام، وحتى نكون منصفين غير مبرّرين، لا يصحّ تشبيه حالة المغرب بحالات المشرق، فالمغرب أعاد ربط الاتصال، ولكن في أضعف أشكاله، والاتفاقية التي تم توقيعها لا تشابه، لا في الشكل ولا في المضمون، الاتفاقيات الأخرى التي وُقعت، فهي لا تتحدّث لا عن السلام، ولا عن أي التزام من المغرب، بمنع أي أنشطة عدائية للكيان الصهيوني، ولا برفض أي دعم لمثل هذه الأنشطة، كما ورد في اتفاقيات أخرى. ثم كان لافتا أن الدولة المغربية، كلما خطت خطوة في اتجاه إسرائيل، رافقتها بخطوات تجاه فلسطين، وكأنها تقول إن هذا الاختيار السياسي لا يعني التخلي عن القضية الفلسطينية.

إنه مأزق السلطة، وهو ضريبة كل من شارك فيها قديما أو حديثا، فما بالك بمن ينتمي إلى التيار الإسلامي، فوجوده فيها ليس سمنا على عسل، فالخيارات صعبة والقرارات عسيرة، والأعداء كثر والخصوم أقوياء، والحال ضعيف والتجربة قصيرة، والمنطق هو التعاون لا الصراع، والقصد المشاركة لا المغالبة، والمدافعة لا الخصام، والهدف الأكبر هو الإصلاح قدر المستطاع. العود اليابس إذا حاولت طيه انكسر، والعود الأخضر يلوى ويلين في أيدي صاحبه يفعل به ما يشاء، ورهان أي حزب سياسي لا يكسر ولا يلين، وقبل هذا لا ينسى سبب وجوده ومقاصد مشاركته، وغاية مهمته، وهذا هو الرهان.

(كاتب مغربي)

سعد الدين العثماني (فرانس برس)

إسماعيل الشهالي قتيلاً في سجن سوري

ميسون شقير

تكتب الفيلسوفة الألمانية، حنا أرندت، في كتابها «الأنظمة التوتاليتارية» أن «فقدان الشعور الإنساني الذي يحمل في طيّاته الخضوع والذلّ كان هدفاً أساسيّاً لسياسة التعذيب التي تمارسها الأنظمة الشمولية، التي كانت تبني وجودها على محو إحساس الإنسان بإنسانيته». ويسال الروائي السوري، مصطفى خليفة، في روايته «القوقعة»: «تُرى كم واحدا منهم يعرف ما الذي يجري في السجون، أهذا هو الشعب الذي يتكلم عنهُ السياسيون؟ ولكن هل من المعقول أن هذا الشعب العظيم لا يعرف؟». الحقيقة أن هذا الشعب، وبفضل الثورة التكنولوجية والإعلامية، وبفضل عصر الفضائيات، وبفضل روايات السير الذاتية، قد عرف أخيراً أي بنيةٍ هي بنية النظام الذي يحكمه، وكيف تم تحويل الجيش السوري من مؤسسة عسكرية مستقلة إلى مؤسسة عسكرية أمنية و «جيش عقائدي»، وظيفتها الحقيقية حماية بقاء الرئيس في السلطة، وخصوصا في سجن صيدنايا العسكري سيء الصيت.

شُيّع جثمان إسماعيل الشهالي عن عمر يناهز 67 عاما، قضى منها 26 عاما في زنازين القهر السورية، دفنه ذووه الذين انتظروه طوال هذه المدة في مدينة طفس غرب مدينة درعا، ولم تتمكن كتبه السياسية والأدبية والروائية السياسية التي فضحت جرائم حافظ الأسد ومجازره تجاه السوريين، في ثمانينيات القرن الماضي، من أن ترى الضوء، فلم يتمكن من نشرها بسبب اعتقاله، ولم يجرؤ أحد على ذلك. وهذا بدل على العلاقة التضادية بين الكلمة والسلطة السورية، وبخاف روائيون في داخل سورية الشمالي، الذي كانت المخابرات السورية ذائعة الصيت به عام 1995، وحُكم عليه بالسجن مدى الحياة، وذلك بسبب تأليفه كتاباً يتحدث عن صدام حسين وحافظ الأسد، وتهمة حيازته وثائق تضر بأمن الدولة. وبقيه يرتفع عدد الشهداء الفلسطينيين السوريين في سجون نظام الأسد إلى 699 شهيداً قضوا تحت التعذيب منذ اندلاع الثورة السورية، وفقا لمصادر حقوقية. هذا هو النظام الذي يتشدّق بدعمه للقضية الفلسطينية، سجن كاتبا فلسطينيا لاجئا 26 عاما، لمجرّد أنه حاول أن يقول وجهة نظر سياسية تنهض بسورية والعراق، وتحذّر من مخاطر تشكل الدولة الدينكتاتورية الأمنية المبنية على الحكم المخابراتي، ومن انهيار المجتمع والإنسان فيها.

كان إسماعيل أحمد إبراهيم الشمالي، المولود في خان يونس عام 1953، يسكن في محافظة درعا، ويُعد أحد أقدم السجناء السياسيين في السجون السورية، حيث حكمت عليه محكمة أمن الدولة العليا السورية بالسجن مدى الحياة بتهمة «حيازة أوراق ومعلومات سرّية يجب أن تبقى طي الكتمان حرصًا على سلامة الدولة». وكما كل سجناء الرأي في سورية، زار الشمالي أغلب سجون الموت السوري، حيث قضى 21 عامًا في أفرع دمشق الأمنية، ثم خمس سنوات في سجن درعا المركزي، وتنقل بين سجني صيدنايا وعدرا حتى نُقل أخيرا إلى سجن السويداء المركزي، ومثل كل معتقلي الرأي في سورية، تعرض الكاتب الفلسطيني للتعذيب بشكل كبير، وخصوصا في سجن صيدنايا العسكري سيء الصيت.

وقبل هجوم الربيع العربي، كانت النخب الحاكمة في العالم العربي قد تحوّلت إلى هيئات للنهب الخالص، وراحت تستعرض رفاهيتها على الملأ، ووّدعت الحذر، وانفصلت تماماً عن الشعوب التي تحكمها، اتكأت على جبروت أجهزتها الأمنية، وباتت تأنف حتى من التفكير والتخطيط لحكم هذه الشعوب. زهد معمر القذافي بالحكم، وبنوا له خيمة على مشارف الصحراء ليستمتع بمنظر النوق، فيما انصرف بشار الأسد إلى شراء السيارات الرياضية وليس أحدث ماركات البنجامات والأحذية الرياضية، وفي مصر لم يعد حسني مبارك يجد ما يفعله، بعد سيطرة نجليه، جمال وعلاء، على مؤسسات البلد.

توّلت الأجهزة السلطانية هندسة المجتمعات العربية على شكل أنساق مرتبطة، بطريقة أو أخرى، بمنظومة فساد واسعة، جرى تصميمها بعناية، فالحصة الأكبر للحاكم وأقربائه، ثم الدائرة التي من حوله، على العالم العربي، طافحٌ بالأحلام والخيبات، كانت أفراحه قصيرة، لكنها مكثّفة، طوت عار عقود مديدة من الصمت، وحطمت، إلى الأبد، الصورة النمطية التي اعتاد الآخرون رؤية الشعوب العربية من خلالها، على الرغم من أن الربيع لم يبلغ أوانه بعد، لكنه ظلّ معلقاً أيضاً، فلا الشعوب تريد تجاوزه، ولا الأنظمة أسقطته نهائياً.

حينما اندلع الربيع العربي، أواخر عام 2010، لم يكن لدى الشعوب العربية بدائل أخرى، بل كانت كل السياقات تؤدّي إلى هذا المسار الوحيد الذي شكّل، في نظر الشعوب العربية، وخصوصا فئات الشباب، العتبة الممكنة للعبور إلى الحداثة، والفرصة الوحيدة للخروج من تحت عباءة أنظمة قروسطية الهت الحاكم إلى درجةٍ أصبح معها هو الدولة والدولة هو، فيما كانت ماري أنطوانيت تسكن قصور الحكم العربية، وكان الساسة والمستشارون يهيئون النسخ الجديدة لإدامة صيرورة الاستبداد، فما دامت الظروف ملائمة فلم لا؟ في نهاية العقد الأول من الألفية الجديدة، شُيّع هجوم الربيع العربي، كانت النخب الحاكمة في العالم العربي قد تحوّلت إلى هيئات للنهب الخالص، وراحت تستعرض رفاهيتها على الملأ، ووّدعت طقس غرب مدينة درعا، ولم تتمكن كتبه السياسية والأدبية والروائية السياسية التي فضحت جرائم حافظ الأسد ومجازره تجاه السوريين، في ثمانينيات القرن الماضي، من أن ترى الضوء، فلم يتمكن من نشرها بسبب اعتقاله، ولم يجرؤ أحد على ذلك. وهذا بدل على العلاقة التضادية بين الكلمة والسلطة السورية، ويخاف روائيون في داخل سورية الشمالي، الذي كانت المخابرات السورية ذائعة الصيت به عام 1995، وحُكم عليه بالسجن مدى الحياة، وذلك بسبب تأليفه كتاباً يتحدث عن صدام حسين وحافظ الأسد، وتهمة حيازته وثائق تضر بأمن الدولة. وبقيه يرتفع عدد الشهداء الفلسطينيين السوريين في سجون نظام الأسد إلى 699 شهيداً قضوا تحت التعذيب منذ اندلاع الثورة السورية، وفقا لمصادر حقوقية. هذا

هل ما زالت الثورات ممكنة؟

غازي دحمان

مرّ عقد، على العالم العربي، طافحٌ بالأحلام والخيبات، كانت أفراحه قصيرة، لكنها مكثّفة، طوت عار عقود مديدة من الصمت، وحطمت، إلى الأبد، الصورة النمطية التي اعتاد الآخرون رؤية الشعوب العربية من خلالها، على الرغم من أن الربيع لم يبلغ أوانه بعد، لكنه ظلّ معلقاً أيضاً، فلا الشعوب تريد تجاوزه، ولا الأنظمة أسقطته نهائياً.

حينما اندلع الربيع العربي، أواخر عام 2010، لم يكن لدى الشعوب العربية بدائل أخرى، بل كانت كل السياقات تؤدّي إلى هذا المسار الوحيد الذي شكّل، في نظر الشعوب العربية، وخصوصا فئات الشباب، العتبة الممكنة للعبور إلى الحداثة، والفرصة الوحيدة للخروج من تحت عباءة أنظمة قروسطية الهت الحاكم إلى درجةٍ أصبح معها هو الدولة والدولة هو، فيما كانت ماري أنطوانيت تسكن قصور الحكم العربية، وكان الساسة والمستشارون يهيئون النسخ الجديدة لإدامة صيرورة الاستبداد، فما دامت الظروف ملائمة فلم لا؟ في نهاية العقد الأول من الألفية الجديدة، وقبل هجوم الربيع العربي، كانت النخب الحاكمة في العالم العربي قد تحوّلت إلى هيئات للنهب الخالص، وراحت تستعرض رفاهيتها على الملأ، ووّدعت الحذر، وانفصلت تماماً عن الشعوب التي تحكمها، اتكأت على جبروت أجهزتها الأمنية، وباتت تأنف حتى من التفكير والتخطيط لحكم هذه الشعوب. زهد معمر القذافي بالحكم، وبنوا له خيمة على مشارف الصحراء ليستمتع بمنظر النوق، فيما انصرف بشار الأسد إلى شراء السيارات الرياضية وليس أحدث ماركات البنجامات والأحذية الرياضية، وفي مصر لم يعد حسني مبارك يجد ما يفعله، بعد سيطرة نجليه، جمال وعلاء، على مؤسسات البلد.

توّلت الأجهزة السلطانية هندسة المجتمعات العربية على شكل أنساق مرتبطة، بطريقة أو أخرى، بمنظومة فساد واسعة، جرى تصميمها بعناية، فالحصة الأكبر للحاكم وأقربائه، ثم الدائرة التي تدير هذه الحصص، وهي في الغالب من المخلبين والمقرّبين، ثم أولئك الذين يشتغلون في مؤسسات تلك العصبة، وأولئك الذين يشتغلون بالوساطة بين هؤلاء ومن هم خارج هذا التصنيف، حتى باتت المجتمعات مجموعة من الطبقات، لها وظيفة محدّدة، تنمية ثروات الفئة الأولى على حساب كل ما عداهم، وخصوصا القاع الذي بات حفرة كبيرة يطحن ساكنيه بدون رحمة. وهكذا، كان الربيع العربي صرخة الم مدوّية من الظلم المطحونين في القاع، وصرخة الواقفين على شفير الحفرة، وهم الشباب ضد مستقبلٍ بدا أنه بلا أفق، عدا عن كونه بلا كرامة.

لم تنهزم ثورات الربيع العربي إلا نتيجة تدخّل خارجي حاسم، فقد انهارت الأنظمة في أغلب بلدان العربي، على الرغم من شيك القمع المفتوح على آخره لكل اتماط القتل والتعذيب والاستباحة، حتى التي لم تسقط مباشرة ظلت مترنّحة، ولم ينقذها سوى تدخل خارجي استقصالي، استهدف كتلا اجتماعية وسياسية بدون مراعاة لا لقوانين دولية، ولا لأعراف وقيم إنسانية. وبدرجة معينة، ساهمت حالة عدم الخبرة في إدارة الثورات وقياداتها، والافتقاد للرؤية والأفكار، في انتصار الثورات المضادّة. وبلخّص الدبلوماسي والسياسي المصري، محمد البرادعي، هذه الحالة بالقول، «لم تكن لدينا الأدوات ولا المؤسسات»، في حين لم يكن ممكناً «القفز من ستين عاماً من الاستبداد إلى ديمقراطية كاملة». ويوضّح «كنا نعلم ماذا فعلنا، ما لا نريده، لم يكن لدينا متّسع من الوقت لمناقشة حتى ما يجب أن يبدو عليه اليوم التالي. كنا أشبه بمن هو في حضانة أطفال عليه الانتقال منها مباشرة إلى الجامعة».

على الرغم من ذلك، ظل الربيع العربي العنوان الذي تتلهف قلوب الشعوب العربية له، بدليل أنه على الرغم من كل الألم الذي أنزلته قوى الثورة المضادّة وعملاؤها الخارجيون بثورات الموجة الأولى، إلا أن الربيع عاد وازهر في السودان والجزائر والعراق ولبنان، وأثبتت الأحداث في أكثر من مكان أن الربيع العربي مرشّح للظهور، حتى في بلدان لم يكن قد ظهر فيها سابقاً.

وما حدث أن الثورة في العالم العربي ظلت المسار الوحيد الذي من الممكن السير فيه، للخلاص من الأوضاع الكارثية التي تعيشها الشعوب العربية، والفرصة الوحيدة الباقية لفتح آفاق جديدة أمام الأجيال العربية، بمعنى أن الثورة ستظل بمثابة استثمار للمستقبل العربي، وبوليصة تامين للأجيال في مواجهة نخب هدرت الثروات العربية، ودمّرت أي إمكانية للنمو والتغيير. ويشهد على ذلك أن الأوضاع العربية باتت سيئة إلى أبعد حد، وليس لدى الثورات المضادّة وداعميها أي بديل عن الفساد والاستبداد، مهمتها الأساسية قمع أي تطلّع للحرية، لتضمن بقاء هذه المجتمعات تحت قبضتها الأمنية، والأهم جعلها تشعر بتانيب الضمير على تفكيرها بالثورة في يوم مضى.

الثورة ما زالت ممكنة، بل هي الخيار القادم في عالمنا العربي، فقد استبطنتها ملايين الشباب العربي، وهم الآن يعيدون إنتاجها في عقولهم وضمائرهم، لإدراكهم أن التغيير لن يحصل لا بضربة حظ ولا بضربة واحدة، والثورة لا زالت ممكنة، لأنها لم تخدرنا بعد، وإن تمهلت قليلاً. ولعل الوصف الادق للحالة الراهنة ما قالته ليلى سويف أستاذة الرياضيات في جامعة القاهرة ووالدة الناشط المسجون في مصر، علاء عبد الفتاح: إذا كانت «الثورة في اللحظة الحالية مهزومة، فهذا لا يعني أنها ستظل مهزومة».

(كاتب فلسطيني)

> يعيد ملايين الشباب العربي الآن إنتاج الثورة في عقولهم وضمائرهم

كاريكاتير عماد حجاج

هل تنجح جهود إفشال المصالحة الخليجية؟

ياسر أبو هلالة

جاءت التحرّشات البحرينية بقطر، اختراق الحدود البحرية والجوية، بتحريض إماراتي لإفشال المصالحة الخليجية، أو السعودية القطرية على وجه الدقة، فالطرف الوحيد الذي يرفض المصالحة من حيث المبدأ هو الإمارات، لأسباب راهنة وأخرى بعيدة. في المقابل، للسعودية مصلحة حقيقية في المصالحة وفتح صفحة جديدة. أما عبد الفتاح السيسي، فهو يتحرّك و

نظرية المؤامرة... كنا في الطليعة وإذا بنا في المؤخِّرة

دلال البزري

كنا أبطالاً في نظريات المؤامرة. عند كل حدث، خطير أو أقل خطورة، نخترع قراءة مؤامراتية. الإمبريالية، الصهيونية، الغرب، الرأسمالية، أوروبا، أميركا، «العرب»، بأشكالهم المختلفة... واللائحة تتجدّد عند كل مطلع حدث، أو أواخره. بحيث إننا يمكن أن نعتدّ بتراث «مؤامرتي»، يملأ بأدبياته رفوف لغتنا العربية، ويسجّل حَوليّاتها، ووقائعها. وكان توأم نظرية المؤامرة، أي النظرية التي تدحض نظرية المؤامرة، على ازدهار كبير بدورها، وكانت تتقاسم معها اهتماماً زائداً. كانت مثل المرصد الذي يسهر على «نظافة» الفكرة وخلوها من نظرية المؤامرة. ومستعدّة في كل لحظة أن تدينها، وتحيلها إلى عالم معرفي «متخلف» و«جاهل». وهكذا أصبح من الصواب السياسي أن لا يكون المرء صاحب نظرية مؤامرة. وصرتَ تقرأ كتباً ومقالات وتعليقات لأناس يؤكّدون لك أنهم لا يؤمنون على الإطلاق بنظرية المؤامرة، ولكنهم هذه المرّة يجزمون أن ثمّة مؤامرة في كذا وكيت من الوقائع (وكانت آخر هذه البطولات نذيراً لبداية انتكاس نظرياتنا المؤامراتية، ذاك «الاكتشاف» الطريف الذي نشرته صحيفة يسارية لبنانية عن مؤامرةٍ بريطانيةٍ ضد لبنان، والشرّ البريطاني، والعقل البريطاني... إلخ. وكأنها بذلك تحيي التفويت الذي عُرف به حزب التحرير الإسلامي، المتوقف عند الاستعمار البريطاني).

أما الآن، فقد ضاعت البطولة العربية المؤامراتية في بحرٍ أوسع منها، وربما أعمق. الآن، في هذه اللحظة بالذات، وُجد سياقٌ يسمح لنظرية المؤامرة أن تنتعش عالمياً، وفي بلدان أكثر تمكّنا منا بمصيرها، أقلّ بؤساً وشقاوة منا. أي في الغرب. لا يعني هذا أن رفوف مكتبات الغرب المتقدّم خلَتْ من «المؤامرة» في ما مضى. ولا يُلغي أنها، أي المؤامرة، كانت محرّكاً لأعمال عدائية تجاه هذه أو تلك من المجموعات المتهمة بحبك مؤامراتٍ في أزمنةٍ ليست بسحيقة. أشهرهم اليهود.

ولكن الآن .. الآن، الوضع يتفوّق على ذاك الذي أفرز بطولاتنا وإنجازاتنا في نظرية المؤامرة. الآن، على رأس قيادة العالم رئيس أميركي يؤمن بنظرية المؤامرة، متعدّدة المصادر... من الصين في الخارج، إلى عملائها «الاشتراكيين» في الداخل. الآن، مواقع، ومجلات، وشرائط اليوتيوب وحركات منظّمة، وأحيانا مسلّحة، تعدّ بعشرات الملايين، غربية تحديداً، أميركية أولاً، ثم أوروبية شيئاً فشيئاً .. كلها لا تصدّق أن ثمّة وباء منتشرا في الكوكب الأرضي. وإذا كان وباء فهو آتٍ من الصين. وإن الصين اخترعته وأخرجته من مختبراتها. وإن الهدف منه هو فرض النظام الشيوعي في دول الغرب.

وفي شريط سينمائي فرنسي خرج إلى الشبكة منذ شهر، انكبّت عليه المشاهداتُ بالملايين (عنوانه «عملية سطو»)، تحلّق المؤامرة فيه عالياً، فتتكرّر مؤامرة المختبرات، يُدان ارتداء الكمّامة، يكذّب كل المسؤولين السياسيين والصحيين والعلماء البارزين، وتوصف عدم كفاءتهم، تلاعبهم بالرأي العام، بالاشتراك مع المختبرات... والغرض كله من هذه «المؤامرة» هو «إلغاء قسم من البشرية» والعودة إلى «حرب الجميع على الجميع».

هذه السردية المؤامراتية الغربية لا تُقاس بالعربية. انها تتفوّق عليها، من حيث سعتها وجاذبيتها الفنية، وتماسك حبكتها، وتغطيتها للجنس البشري كله. تحرّكها جهات نخمّن قوتها الهائلة. لا تُقارن بصعاليكنا المؤامراتيين.

تلخيص فحوى هذه النظريات، وما يجمعها: أولها نكران الحقائق. نكران أن ثمّة وباء، وأن ثمّة علاجا محتملا له، وأن ثمّة موتى من مجرّد الاختلاط... إلخ. ثم الإيمان بوجود كيان «غريب» يحرّك هذه المؤامرة. والصين تحتل هنا مكان الإمبريالية والصهيونية التي أحببناها. وتتابع النظرية أن هذه «الكيانات» تبثّ الأكاذيب الصارخة، الهادفة إلى هلاك الأمم، ولكنها تعمل بالخفاء...

القوة الإضافية التي غذّت نظرية المؤامرة، هي الوباء نفسه. فهو قسّم الجماعة العلمية إلى فرق، متساجلة متحاربة أحياناً. حول أصل الوباء، وتكوينه، حول الطريقة الأمثل للتصدّي له. ولم يعفِ السياسيين، الذين ارتبكوا وتناقضوا، وتراجعوا، ثم وثبوا من جديد، من دون أن يكون لتحرّكاتهم الفاعلية المأمولة، إلا بالنذر اليسير. والأهم من ذلك كله، أمام الصين الصامتة على إجراءاتها، يبدو العلم الغربي، النظام الصحي الغربي، أكاد أقول الابستمولوجيا العلمية الغربية... كلهم على بلاء، يتفوّق فيه الشكّ على الاطمئنان.

طبعاً يمكن أن نتفلْسف ونقول إن أصحاب نظرية المؤامرة هم أشخاص يعانون من عقدة الاضطهاد، وإنهم يحلّلون الجزئيات من دون الكليات، وإنهم لا يؤمنون بالمصادفة التاريخية، أو المفاجأة التاريخية، وإنّهم يتسرّعون باستنتاج أي شيء من أي خبر يسمعون، وضيقو الأفق، ويعتمدون على حدْسهم بدل تحليلهم في اعتمادهم النظرية المؤامراتية. باستثناء السمة الأخيرة، أي الحدْس بدل التحليل، فإن كل ما سبقها لم ينطبق على المدروسين من أصحاب نظرية المؤامرة. أي أنهم يمكن أن يكونوا أسوياء، واسعي الأفق، قادرين على سعة الرؤية... إلخ.

والحقيقة أن المؤامراتية نقلت عديدين من أصحاب العقل الراجح إلى ضفتها. منهم كتاب وفنانون وسياسيون، بل مثقفون كبار أيضاً. خذْ مثلاً الفيلسوف الفرنسي، اليساري ريجيس دوبريه، في غمرة «المؤامرة العلمية العلمية الأميركية على فرنسا»، اشترك فيها ماكرون نفسه، رئيس الجمهورية. وفي عزّ مناخات المؤامرة الفيروسية العالمية، يكتب ريجيس دوبريه: «في سبعينات القرن الماضي، كانت أميركا تفتح أبواب جامعاتها التقدّمية لمفكري «النظرية الفرنسية»، مثل جاك ديريدا، وميشال فوكو، وجيل دولوز. بعد ذلك بخمسين سنة، صارت أميركا تصدِّر، ومن دون حمايةٍ جمركية، محاكم التفتيش الفكري، التي تراقب من طبَّق، ومن لم يطبِّق نظرية «العنصرية المؤسساتية» أو نظرية «امتيازات البيض» على «أرضنا ذات الرؤية الكونية». ومَفاد هذه «اليقظة» العلمية المباغتَة، وسط ضباب الوباء، هو تمسّك الفرنسيين بريادتهم الفكرية والنظرية، واعتبار تراجعهم على هذه الساحة من أعمال الشيطان الأكبر: أميركا .. ومن أين تصدُر هذه المعاني؟ من أمةٍ بنَت ركائزها على مقولة فيلسوفها الوطني رينيه ديكارت: «أنا أفكّر، إذن أنا موجود»، فلا عتْب كبير علينا بعد ذلك.

> يمكن أن نتفلْسف ونقول إن أصحاب نظرية المؤامرة هم أشخاص يعانون من عقدة الاضطهاد، ويحلّلون الجزئيات من دون الكليات

> سوف نصل إلى يومٍ نترحّم فيه على نظرية المؤامرة العربية، بسذاجتها وضعف حبكتها وبراءة شرّيريها واهتراء الهندام الذي ألبستهم إياه

من الواضح أن نظرية المؤامرة هي يقين، مدفوعة بالحاجة الملحّة إليه. يقين يردّ على يقين مزَعْزع، أو على شكّ قاس، أو حيرة لا تُطاق. والوضعيات هذه ليست من مزاج البشر كلهم، أو غالبيتهم. وهم الأقرب حاجةً إلى يقين. والذي تخترعه نظرية المؤامرة من يقينٍ جديد يضع الحقيقة أمام اختبار. ما هي الحقيقة إذن؟ للذين استصعبوا اليقين الجديد، ولم يكابروا في التأكيد على صحة اليقين القديم. خصوصاً بعدما هزّ الوباء ركائزه، كما لمحنا. اليقين المضاد لليقين المؤامرتي يحتاج إلى جهد تنْقيبي دؤوب، إلى تحمّل الحيرة، وعدم اليقين. ولكن ليس إلى درجة مؤاخاتهما، حتى لا يصبح الشكّ يقيناً من نوع آخر... وحتى لا يتحوّل التنقيب عن تلفيقات نظرية المؤامرة إلى هوَس مؤامراتي مضادّ، يريد أن يكشف عن تآمر أصحاب نظرية المؤامرة. خصوصاً أن كوكبنا مقْبلٌ على مزيد من الغموض، وربما الأوبئة والأزمات المناخية والغذائية القاتلة. بعد اللقاح، سوف تستنفر نظريات المؤامرة كل طاقاتها للقول إن هذا اللقاح هو استمرار للمؤامرة. وإنه يحتوي على كذا وكيت من موادّ تجعلنا عاجزين، أو معتلّين، أو مراقَبين، أو معدَّلين جينياً .. إلخ. وسوف نصل إلى يومٍ نترحّم فيه على نظرية المؤامرة العربية، بسذاجتها وضعف حبكتها وبراءة شرّيريها واهتراء الهندام الذي ألبستهم إياه.

(كاتبة لبنانية)

2020... القلق الكوني والأزمة الوجودية الحادّة

عبد الصمد بن شريف

ستبقى سنة 2020 أسوأ سنة في عصرنا، وعلامة صارخة على أزمة وجودية حادة. إنها سنة كل المفاجآت غير السارّة. فيروس مجهري، لم يعرف مصدره وموطنه الحقيقي، روّع البشرية قاطبة، وزعزع اقتصادات العالم، وشلّ شتى المؤسسات، وقلّص الحريات الفردية بشكل غير مسبوق، كما غيّر جذريا حياة المجتمعات والعلاقات بين الأفراد، وهزّ منظومة القيم والأخلاق، وعرّى هشاشة منظومات صحية وتعليمية في دول عديدة.

قبل سنة فقط، كان الناس يسافرون ويتجولون كما يشاؤون، ويتجمعون بالآلاف في مختلف المناسبات. كانوا يحتفلون بأعياد رأس السنة، ويرقصون ويغنون في الأعراس والسهرات. وكان الآلاف من المشجعين يحجّون إلى الملاعب، ليمارسوا طقوسهم في الابتهاج والمساندة. كانت البشرية تفعل هذا، من دون أن تدرك أنها كانت تمارس حرية أساسية، افتقدت معناها وقيمتها اليوم.

بسبب فيروس كوفيد 19، أصبح مستقبلنا على كفّ عفريت، ومشوبا بالغموض والخوف وعدم الثقة. أصبحنا نعيش أقصى درجات الشك، من دون القدرة على توقّع ما يحمله هذا المستقبل، على الرغم من الأمل الكبير الذي نتشبث به، بفضل التوصل إلى اكتشاف لقاحات من المفروض أن تخلصنا وتنقذنا من هلاك محتمل، وتساعدنا على العودة إلى الحياة العادية والطبيعية. سنة من الهلع والحيرة والعجز والمشاهد المؤلمة، حتى الأطباء أصيبوا بالذهول، وهم يواجهون تدفقا جبارا لمئات الإصابات، كثير منها في وضعية حرجة. كانت الصور تنشر وتبث وهي موغلة في الرعب. كانت غرف الإنعاش تبدو أشبه بمقبرة إلكترونية، وأثّرت صور المستشفيات المملوءة عن آخرها، ونداءات طلب الإغاثة من أشخاص مسنين منكسرين، على كل المجتمعات، وكأننا أصبحنا أمام مشهدٍ قيامي، يُنذر بالنهاية الحتمية للبشرية. وزادت طقوس دفن ضحايا الفيروس التاجي التوسّعي من حجم الهلع.

رحلوا ويرحلون في صمت، ويدفنون بعيدا عن أنظار أفراد أسرهم. كانت سيارات الإسعاف وسيارات نقل الموتى كافيةً لتقنعنا، عبر أعدادها الهائلة وأصواتها المخيفة، بأننا مطالبون بأعلى درجات الحيطة والحذر، والبقاء في المنازل، والتقيد الصارم بإجراءات السلامة الصحية.

ويشهد الجميع أن فيروس كورونا المستجد أصاب الديمقراطية التمثيلية، بما في ذلك في الدول التي اعتبرت مهدا تاريخيا لأعرق الديمقراطيات، فقد ألحق شللا مزمنا بمؤسسات هذه الديمقراطية. أغلقت البرلمانات، وتوقفت آلة التشريع والرقابة. وأغلقت المؤسسات التعليمة بكل مستوياتها، وأصبح التعليم عن بعد البديل الأوحد والضروري، لضمان عملية التكوين والتفاعل بين أطقم التدريس والمتعلمين. كما أغلقت الملاعب والمعامل، وتوقفت حركة الطيران وماتت السياحة. وتحولت المدن في مختلف مناطق العالم إلى فضاءاتٍ يؤثثها الصمت والتردّد والانتظار الصعب. ولم تسلم الصحافة من تداعيات الجائحة، عندما قرّرت مئات المؤسسات التوقف عن إصدار الطبعة الورقية، والاكتفاء بالصيغة الإلكترونية. وتوقفت المسارح وقاعات السينما والعروض والحفلات عن أنشطتها. وحلّت المكتبات الإلكترونية محل المكتبات الواقعية، ولم يجد المثقفون والخبراء وصنّاع الرأي من وسيلة للتناظر والنقاش حول الجائحة، غير منصّات التواصل الاجتماعي والعالم الافتراضي، وأفلست مشاريع كثيرة وأجهضت أحلام غفيرة. وشرّدت آلاف الأسر، وفقد ملايين من العمال والموظفين مناصبهم ومصادر عيشهم، خصوصا في البلدان التي تجبّرت فيها الرأسمالية المتوحشة.

وظهر جليا أن شبكات التواصل الاجتماعي خلخلت سوق الأخبار بشكلٍ يكاد يكون شاملا وتاما، فالوباء حدّ من تدخل الخبراء والعلماء، ما أفسح المجال أمام هذه المنصّات لتنشر كمية وافرة من الأخبار الكاذبة، لأنها ليست منصّاتٍ للأخبار المحايدة، فهناك خطر كبير للتعرّض لتأثيراتٍ وتوجيهاتٍ تمليها مصالح وأجندة معينة. وباتت الأخبار والخطابات الأكثر تداولا وانتشارا وجاذبية التي يتم تسويقها وتوزيعها بين رواد ونشطاء، يعتقدون، بقوةٍ لا مراء فيها، أن الوباء من صنع البشر، وجد لسحق الفقراء في إطار مؤامرةٍ دبّرها أغنياء الكرة الأرضية. وهكذا انتعش الكذب ونظرية المؤامرة. لقد ساءل الوباء، بعمق، السياسة والعلوم والمنظومات الصحية والاختيارات التربوية والأولويات في السياسات العمومية. وهكذا طرح من جديد معنى فن الحكم، وتساءل الناس عن القرار الصائب الذي يجب أن تتخذه الحكومات، فخلال كل مراحل الوباء التي مرت بها البشرية، لم تكن الحكومات ملتزمةً بالقدر الوافي من الشفافية بشأن الأسئلة وعلامات الاستفهام التي طرحها الرأي العام في مختلف الدول، فالسلطات كانت منشغلة، في المحل الأول، بطمأنة الجمهور وتهدئة الحشود. ولم تسلك مسلكا أو طريقا عقلانيا، فقد تحدّثت بلغة الشك. وبدا واضحا أن ما يضعف الديمقراطية أنها لم تحقق كل أهدافها. ووقع تحول راديكالي في معنى الديمقراطية نفسها ودلالتها، وأصبحت المواجهة حادّة ومستعرة بين المصالح، وتغير مفهوم ثنائية يمين يسار والأنظمة الشمولية والمستبدّة.

فاضت الاستعارات وتدفقت المجازات وحدثت انزياحات كثيرة في السياقات كافة، فانتقلت العدوى إلى المجالات، السياسي والإعلامي والثقافي. ومال عديدون من كتّاب الرأي والمعلقين والإعلاميين والمثقفين إلى استعمال كلمة الفيروس واللقاح، في المجالات التي ينشطون فيها. وفاقم الوباء الشعور بعدم الثقة الذي فخخ منذ سنوات عددا من الأنظمة السياسية الديمقراطية. واستعمل فيروس كوفيد 19 محفّزا لنشر الشك وعدم الثقة، ومسرّعا لارتياد آفاق قناعاتٍ جديدة، والانتماء إلى معسكر نظرية المؤامرة. واشتعلت هذه الأفكار على فضاءات شبكات التواصل الاجتماعي بطريقة صادمة. وأنتج الفيروس فصيلةً جديدةً من بائعي الشروحات والتفسيرات ومسوقي رؤيةٍ مسكونةٍ بالرهابات والصور المخيفة إزاء تقدّم الفيروس وانتشاره وغزواته الكاسحة، فقد غرق العالم في وضعيةٍ غير مسبوقة وفارغة من المعنى وصعبة ومحيرة، فالبشرية كانت تحتاج إلى تفسير وإقناع وشرح اللاعقلاني والخرافي والغيبي والشعبوي الذي بدا لكثيرين عقلانيا وواقعيا. وأكيد أن جهودا جبارة بذلت هنا وهناك، لطمأنه البشرية.

وربما اجتراح نظرية جديدة مقلقة ومفارقة للمعنى. وهي محاولاتٌ لامتصاص القلق الكوني الذي أفرزته الوضعية الوبائية المرعبة، القلق الذي ساهم في مضاعفة الوجع الوجودي والارتباك النفسي، خصوصا وأن تصريحات الخبراء وتفسيراتهم بدت متباينة، وأحيانا متنافسة، وباعثة للهلع والتوتر، ما جعلها لا تلعب دورا رياديا في توحيد الرؤى، سيما في المراحل الأولى للوباء. تحتاج البشرية إلى تفسير جديد للعالم، بدون خديعة أخلاقية أو خدعة تحوّل اتجاه البصر والبصيرة، وبدون أحكام مبنية على تأويلات وتعليلات غير مقنعة وغير متماسكة، فقد نما الشك واتسعت دائرته تجاه المؤسسات الكبرى، بما في ذلك منظمة الصحة العالمية وصندوق النقد الدولي والحكومات واللوبيات، وكذا المختبرات التي دخلت فيما يشبه حرب مصالح حامية الوطيس، بسبب هاجس الربح الذي يسيّل لعابها.

مرّت سنة على ظهور جائحة كورونا، ولا أحد في هذا الكوكب كان يتوقع أنه بعد 12 شهرا سيكون الفيروس التاجي سببا مباشرا في وفاة أكثر من مليون ونصف مليون شخص، وإثارة أخطر أزمة صحية عالمية منذ حوالي قرن. وحتى إذا توصل العلماء إلى اكتشاف لقاحاتٍ فعّالة وقادرة على الحد من انتشار الفيروس وتفشيه، فإن أصل الفيروس وموطنه سيظل لغزا محيرا. وكان لافتا أن المسافة الزمنية بين ظهور إصابات مزمنة وغامضة في الجهاز التنفسي في مدينة ووهان الصينية ونشر معلومات مفصلة عن الجينوم قصيرة جدا، ولكن السلطات الصينية مارست، بسرعة فائقة، ضغوطها على المختبر الذي أجرى البحث، قصد تأخير نشر هذه المعلومات الأساسية، في أي عمليةٍ تسعى إلى ضبط الفيروس وتعيين هويته ومصدره. ومنذ ذلك التاريخ، اتهمت الصين بتنصّلها من واجب التعاون العلمي لتحديد الأصل الحقيقي للجائحة، وظل الخبراء على مسافة من الموضوع، والذين أطلقوا صفارات الإنذار، تم تخويفهم وتهديدهم بالعقوبات. وكان أمل سلطات بكين أن يتواطأ الصحافيون مع مقاربتها في التعاطي مع الجائحة، لكن الوازع الأخلاقي والواجب المهني حالا دون تحقق ذلك.

> استعمل فيروس كوفيد 19 محفّزاً لنشر الشك وعدم الثقة، ومسرّعاً لارتياد آفاق قناعاتٍ جديدة، والانتماء إلى معسكر نظرية المؤامرة

> حدّ الوباء من تدخل الخبراء والعلماء، ما أفسح المجال أمام منصّات كثيرة لتنشر كمية وافرة من الأخبار الكاذبة

حاولت الصين دفع كل الشبهات عنها، وخاضت حربا إعلامية ودبلوماسية لدحض ما كان يغرّد به الرئيس الأميركي، دونالد ترامب، الذي استعمل، منذ اللحظات الأولى، مصطلح الفيروس الصيني. وقد حار العلماء والخبراء في تحديد مصدر الوباء، وتشعبت مسالك البحث، بعد أن اختلطت بالسياسة. أسئلة كثيرة طرحتها البشرية، ولكن لا أحد استطاع تقديم الجواب الشافي والمقنع، أو رجّح هذه الفرضية على تلك، في غياب تحقيق يستند إلى الشروط العلمية الضرورية والملائمة.

وفي خطوةٍ قد تبدّد بعض الشكوك، شكلت منظمة الصحة العالمية، أخيرا، فريقا من الخبراء الدوليين، من المقرّر أن يتوجه إلى الصين في مسعى لتبديد الغموض الذي اكتنف الجائحة ومحاولة حل اللغز، في مبادرةٍ، على الرغم من أهميتها وضرورتها، جاءت متأخرة. لأن السلطات الصينية حرصت باستمرار على إجهاض مهمةٍ من هذا القبيل، والتزمت سياسة الصمت والتستر، وحدّدت مسبقا مساحات تحرّك فريق الخبراء الدوليين، حيث لن يتجاوز الاشتغال على الفرضيات المقدّمة من السلطات الصحية الصينية التي صادق عليها مسبقا الجهاز السياسي الحاكم. ويبدو هذا الموقف مستفزّا وغير مقبول من القوى العظمى، خصوصا الولايات المتحدة الأميركية ودول أوروبا، بالنظر إلى عدد الوفيات والخسائر المهولة التي أحدثتها الجائحة على الأصعدة كافة.

(كاتب وإعلامي مغربي)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

نائب رئيس التحرير **حسام كنفاني** ■ مدير التحرير **ارنست خوري** ■ المدير الفني **إميل منعم** ■ السياسة **جمانة فرحات** ■ الاقتصاد **مصطفى عبد السلام** ■ الثقافة **نجوان درويش** ■ منوعات **ليال حداد** ■ الرأي **معن البياري** ■ المجتمع **يوسف حاج علي** ■ الرياضة **نبيل التليلي** ■ تحقيقات **محمد عزام** ■ مراسلون **نزار قنديل**

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، **لندن**
Unit5, Central Park, Central Way, London, NW 10 7FY
Tel: 00442071480366
■ مكتب **الدوحة**
الدوحة ـ الدفنة ـ برج الفردان ـ الطابق العاشر ـ
هاتف: 0097440190600
■ مكتب **بيروت**
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads